

قراءة نصية في دعاء من أدعية
الصحيفة السجادية



د. إحسان بن صادق اللواتي





خواتم الخير

قراءة نصية في دعاء من

أدعية الصحيفة السجادية

الطبعة الاولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الناشر

جواثا للنشر

لبنان - بيروت، ص . ب : ٣٢٧ / ٢٥

إخراج فني : علي البحراني

تصميم الغلاف : الزهراء

المطبعة : دلتا للطباعة

وكيل التوزيع : دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت : ٠٠٩٦١٣٦٨٩٤٩٦

E-mael : daralwalaa@yahoo.com

خواتم الخير

قراءة نصية في دعاء من
أدعية الصحيفة السجادية

د. إحسان بن صادق اللواتي

جــواثـــا

تقديم

سماحة العلاّمة الدكتور

عبدالهادي الفضلي

الدعاء ظاهرة فطرية عند الإنسان تعرب عن مدى إيمان الإنسان بالقوة الغيبية القادرة على منحه المطلوب، وعلى إنقاذه من الوهدة أو المأزق، وعلى رفعه إلى المستوى الأعلى مما هو فيه من مستوى، وكذلك تعرب عن مدى علاقة الإنسان بربه التي تقوم على أساس من العطف والرحمة، والشعور بأن رحمة الله هي الرحمة الشاملة في أوسع ما تكون الشمولية والقادرة في أقوى ما تكون القدرة.

والدعاء من أهم العوامل التي تجسد أمام الإنسان الكمال المطلق لله تعالى، وهو منتهى العظمة، ومنتهى

الزخم الذي يدفع الإنسان لأن يستشعر عزته باستقلاليته عن الحاجة إلى مخلوق مثله وذلك لأنه مرتبط بمدد حي ودائم من الكمال المطلق.

من هنا تبرز أهمية الدعاء لما له من مفعول عميق وبعيد في تطوير حياة الإنسان إلى المستوى الأعلى الذي أراده الله تعالى له.

وأهم تلكم الأفاعيل للدعاء أو المعطيات هي:

١- توثيق علاقة الإنسان بالله تعالى.

٢- تصفية النفس من الشوائب التي قد تكدر علاقة المخلوق بخالقه.

٣- تمتين ظاهرة الاتكال على الله تعالى في كل الأمور (ربي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح شأني كله).

٤- تأكيد التعلق بالمصير الأسمى وهو سعادة الحياة الأخرى.

٥- تقوية شعور الخشية من الله تعالى، ليرضى الإنسان

لله ويغضب لله.

٦- تنمية روح التواضع للغير ولكن في إطار عزة المؤمن.

وترينا مأثورات الدعاء ومأثورات سيرة نبينا المختار ﷺ وسير أهل بيته المصطفين الأخيار عليهم السلام مدى اهتمامهم الكبير بالدعاء، حيث نقرأ لكل واحد من هؤلاء الأولياء الأصفياء مجموعة كبيرة من الدعاء في المناسبات التي يظن فيها استجابة الدعاء، وفي غير هذه لأن الدعاء محبوب لله تعالى ومرغب فيه في كل زمان وكل مكان وعلى كل حال.

ومن أشهر وأسير جوامع الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم الصحيفة المعروفة بـ (الصحيفة السجادية) نسبة إلى الإمام علي زين العابدين والملقب بالسجاد لكثرة تعبده وطولة تهجده، حتى ليخيل لمن يقرأ أدعية هذا الإمام عليه السلام في هذه الصحيفة المباركة أن كل أبعاد وعوالم الحب الإلهي تجمعت وتجسدت في شخصيته عليه السلام.

ومع قدرته الفنية الرائعة على صياغة الدعاء بأسلوب خاص تفرد به يشعرك وأنت تتعرفه أنك أمام لوعة ولهفة المشتاق المستهام يتنهدها عليه السلام في محراب العشق الإلهي.

مع هذه القدرة من حيث الشكل نلمس القدرة الأخرى الفائقة في عطائها من المضمون، فقلّ أن تقرأ دعاء من أدعية هذه الصحيفة إلا وتراه يعالج مشكلة اجتماعية، أو يوجه إلى حل معضلة إيمانية أو تشريعية.

وبهذا يكون الإمام عليه السلام قد أضاف وسيلة أخرى من وسائل الدعوة إلى الله تعالى وهو الدعاء.

وقد اختار صاحب الفضيلة المؤلف الشيخ إحسان أن يكون محور بحثه دعاء من أدعية هذه الصحيفة الميمونة وهو (دعاء خواتم الخير)، وهو اختيار موفق إذ أن هذا الدعاء من اللوحات الفنية قل ما تستطيع أن ترسمها ريشة مبدع عبقري، صوّر الإمام عليه السلام أمواج الروح وهي تصعد إلى الملكوت الأعلى في وسط لجج

الحياة صافيًا ماؤها، نقيًا رواؤها، يؤطرها إشعاع السناء البهي لأنها من صنع الله تعالى بمفعول ما يقدمه الإنسان أمامه من إيمان يحمله قلب طاهر وعمل نيّر باهر.

ولا أريد أن أستبق المؤلف فأتحدث عن هذا الدعاء الشريف، وإنما أدع للقارئ الكريم أن يستمتع ويستفيد مما دونته يراعة المؤلف العزيز في استنطاق عبائر هذا الدعاء واستقبال معطياته الخيرة، فقد تناوله بالبحث شكلاً ومضمونًا، وفي الاثنين وُفق إلى الحسنيين، فأسأله تعالى أن يختم له بخواتم الخير إنه ولي التوفيق وهو الغاية.

الدكتور عبد الهادي الفضلي

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على رسوله الأمين وأهل بيته الطاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد ...

فغيرُ خافيةٍ الأهميةُ التي أعطاها الإسلام للدعاء؛ فقد تضافرت الآيات الشريفة والروايات الكريمة في بيان جوانب مختلفة تتعلق به: فضيلته، وآدابه، وأوقاته، وشروط الاستجابة،....

وذهبت الروايات الشريفة في هذا كله مذهبًا عظيمًا، فمما روي عن رسول الله ﷺ قوله: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض»[1].

وقوله: «ما من شيء أكرم على الله تعالى من

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج٩٠، ص٢٨٨.

الدعاء»[1].

وقوله: «الدعاء مخ العبادة، ولا يهلك مع الدعاء أحد»[2].

وليس صعبًا على المتتبِّع للنصوص الواردة في هذا الباب أن يلاحظ أنَّها لا تقتصر على النظر إلى الثواب الكبير والأجر الجزيل الذي يحصل عليه الداعي نتيجةً لدعائه، بل هي ناظرة أيضًا إلى ما للدعاء من آثار إيجابية عظيمة في حياة الفرد الداعي وفي المجتمع الذي يشيع فيه الدعاء، تلك الآثار التي تفتقر إليها البشرية اليوم، بعد أن عاشت ردحًا من الزمن تعبد تقدمها الصناعي وتركع لتطورها التقني فاقدةً الارتباط الروحي الحقيقي بما وراء هذا العالم المادي، فكان نتيجة هذا كله أن خيَّم الجفاف الروحي على القلوب، وطغى الشعور بالعبثية والغثيان على النفوس، فتحول الإنسان إلى آلة منتجة،

---

(١) م.ن، ج٩٠، ص٢٩٤.
(٢) م.ن، ج٩٠، ص٣٠٠.

ليس لها في هذا العالم إلا أن تعمل وتعمل من دون أن تفهم لماذا أو إلى متى ؟

أجل، لقد استبد الغرور بهذا الإنسان فظن أنَّ تقدمه الصناعي يغنيه عن الارتباط الروحي بالله تعالى، متناسيًا أنَّه بتقدمه هذا إنما يُشبع حاجات بُعْدٍ واحد فحسب من بُعديه، أما البعد الآخر فلا يزداد على مر الأيام إلا ضياعًا واضمحلالاً؛ وبذا يكتب الإنسان على نفسه الشقاء من حيث يقصد السعادة. وأي شقاء أعظم من أن يكتفي الإنسان بقدراته الضئيلة في بعض جوانب الحياة متغافلاً عن القوة العظمى التي أوجدت هذا الكون بأكمله ثم أخذت تسيّره في دقـة ونظام لا نظير لهما ؟ وأي شقاء أكبر من أن يجد الإنسان نفسه في الحياة فلا يحاول أن يفهم من أين جاء ومن الذي خلقه ولِمَ خُلق وإلى ماذا سينتهي أمره؟

وليس الأمر مقصورًا على المعرفة العقلية حتى يكتفي الإنسان بمجرد فهم العقائد الدينية، بل الإنسان يجد

نفسه - بفطرته - محتاجًا إلى الارتباط بمصدر وجوده، ليستمد منه طمأنينة النفس وراحة الشعور وتوهج الأمل والدافع نحو الحياة الحقَّة ونمو العطاء والإبداع فيها، وهذا كله بعضٌ من العطاء الكبير للدعاء؛ ولذا قال البروفيسور المعروف الكسيس كاريل: «وهكذا يتبدى لنا أن الدعاء ضرورة لا يستغنى عنها لرقي الإنسان وتساميه نحو الأمثل والأفضل. ومن هنا علينا أن لا ننظر إلى الدعاء كعمل لا يقوم به إلا ضعاف العقول والمتسولون أو الرعاديد الجبناء»[1].

وقد أولى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء عناية خاصة، فتركوا لنا كنوزًا عظيمة من الأدعيـة، ومن أشهر هذه

---

(١) الدعاء، د. الكسيس كاريل، ترجمة د. محمد كامل سليمان، ص٨٥.

الأدعية تلك التي تضمها الصحيفة السجادية[1] التي لقيت من الاهتمام لدى العلماء والشرّاح ما يقل نظيره؛ حتى وصلت شروحها إلى سبعين شرحًا[2]، وعُرفت عند العلماء بزبور آل محمد وإنجيل أهل البيت عليهم السلام؛ إشارة إلى جلالة قدرها وعظمة أمرها.

والمراجِع لأدعية الصحيفة السجادية سرعان ما ينبهر بالنظرة الشمولية الدقيقة التي تبوح بها؛ فالشمول يظهر في الأبعاد المختلفة التي تتناولها هذه الأدعية

---

(١) نسبة إلى الإمام السجاد عليه السلام، وهو الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رابع الأئمة الاثني عشر، ولد بالمدينة المنورة سنة ٣٦هـ، وقيل سنة ٣٨هـ، شهد مع أبيه الحسين وقعة كربلاء، وقد منعه المرض من المنافحة عن أبيه، عرف بالتقى والفضل حتى لقب بالسجاد وزين العابدين، وقال عنه الزهري: = «ما رأيت هاشميًا أفضل من علي بن الحسين»، توفي عليه السلام مسمومًا في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٩٤ أو ٩٥هـ.

(٢) ذكرها بالتفصيل علي أنصاريان في مقدمته على الصحيفة السجادية، طبعة الملحقية الثقافية الإيرانية بدمشق، د.ت.

بحيث تكاد لا تدع مجالاً من المجالات الحياتية للإنسان - فردًا وجماعة - إلاَّ وتتناوله، والدقة تسفر عن وجهها من خلال الطرق التي يتم بها تناول مشكلات الإنسان وقضاياه في كل هذه المجالات.

وعلى هذا، لا تكون أدعية الصحيفة السجادية المباركة مجرد تهويمات روحية حالمة، بل هي، في حقيقتها، مدرسة كبرى للإنسان الداعي، يتزود فيها عقله وروحه وسلوكه بأعلى الدروس التربوية التي تعود عليه وعلى مجتمعه بأعظم الفوائد، ومن هنا قال السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدست روحه الزاكية): «وهكذا نعرف أن الصحيفة السجادية تعبر عن عمل اجتماعي عظيم كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الإمام، إضافة إلى كونها تراثًا ربانيًا فريدًا يظل على مر الدهور مصدر عطاء ومشعل هداية ومدرسة أخلاق وتهذيب، وتظل الإنسانية

بحاجة إلى هذا التراث المحمدي العلوي وتزداد حاجة كلما ازداد الشيطان إغراء والدنيا فتنة»[1].

وهذه الدراسة محاولة متواضعة للولوج في عالم الدعاء عند الإمام علي السجاد عليه السلام من خلال دعاء معيَّن من أدعية الصحيفة، ألا وهو الدعاء الحادي عشر: «دعاؤه بخواتم الخير»، والدراسة تنهج، في بنائها العام، المنهج التحليلي الوصفي، الذي ينطلق وراء الكلمة أو العبارة محاولاً استكناه ما يمكن استكناهه من أبعادها وآفاقها التي تمتد فيها، ومتحاشيًا الاقتصار على شرح الكلمة بكلمة أوضح منها من دون سبر لأغوارها، ومجتنبًا الخوض فيما يراه غير مُجْدٍ من الأبحاث.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الجهد القليل

---

(١) من مقدمة السيد الشهيد الصدر على الصحيفة السجادية، طبعة مكتبة الألفين بالكويت، د.ت.

خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طالبي الهدى والرشاد، إنه سميع مجيب.

إحسان
٨/صفر/١٤١٥هـ
مسقط - سلطنة عمان
ehsansadiq@hotmail.com

نص الدعاء

«يا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صلِّ على محمد وآله، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة.

فإن قَدَّرت لنا فراغًا من شغل، فاجعله فراغ سلامة، لا تدركنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه سأمة، حتى ينصرف عنا كُتَّاب السيئات بصحيفة خالية من ذكر سيئاتنا، ويتولى كُتَّاب الحسنات عنا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا. وإذا انقضت أيام حياتنا، وتصرمت مدد أعمارنا، واستحضرتنا دعوتك التي لابد منها ومن إجابتها، فصلِّ على محمد وآله، واجعل ختامَ ما تحصي

علينا كتبة أعمالنا توبةً مقبولة لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه ولا معصية اقترفناها ولا تكشف عنا سترًا سترته على رؤوس الأشهاد، يومَ تبلو أخبار عبادك، إنَّك رحيم بمن دعاك، ومستجيب لمن ناداك».

الفصل الأول
المقدمة المدحية

حفلت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام ببيان كثير من الآداب التي ينبغي أن يتقيد بها الداعي عند دعائه، ومن هذه الآداب أن يُفتتح الدعاء بمدح الله سبحانه وتمجيده، فقد قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «السؤال بعد المدح، فامدحوا الله ثم سلوا الحوائج»[1].

وقال عليه السلام: «اثنوا على الله عزوجل وامدحوه قبل طلب الحوائج»[2].

فلنلاحظ هنا مقدمة الإمام السجاد المدحية وما اشتملت عليه.

---

(١) و (٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج٩٠، ص٣٠٨.

لقد مدح الإمام ربه بثلاث صفات، هي:

(أ) «يا من ذكره شرف للذاكرين»:

الذكر في اللغة هو «الحفظ للشيء تَذْكُرُه»[1]، وقد عدَّ الإمام ذكر الله شرفًا للذاكرين، فما وجه ذلك؟

يمكن أن تُذكر في المقام مجموعة من الوجوه لتعليل كون ذكر الله شرفًا لعبده الذاكر له:

١ - إنَّ ذكر العبد ربه موجب لذكر الرب عبده، وهذا ما دلَّ عليه قوله تعالى: «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون»[2] ودلَّت عليه أيضًا أخبار كثيرة كالحديث القدسي: «يا ابن آدم اذكرني في ملاء أذكرك في ملاء خير من ملئك»[3]، والحديث القدسي الآخر: «من ذكرني في ملأ من الناس ذكرته في ملأ من الملائكة»[4]. وأي

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة «ذكر».
(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٢.
(٣) و(٤) أصول الكافي للكليني ج٢، ص٣٦١.

شرف أعظم للعبد من أن يكون مذكوراً من الله سبحانه وتعالى؟

لكن، ما معنى ذكر الله عبده؟

ذكر المفسرون معاني مختلفة لهذا الذكر، تتنوع بحسب تنوع ذكر العبد ربه:

- فإذا ذكر العبد ربه بالطاعة، ذكره الرب بالرحمة.

- وإذا ذكره بالدعاء، ذكره الرب بالإجابة.

- وإذا ذكره بالثناء والطاعة، ذكره تعالى بالثناء والنعمة.

- وإذا ذكره في الدنيا، ذكره الله في الآخرة.

- وإذا ذكره في الخلوات، ذكره ربه في الفلوات.

- وإذا ذكره في الرخاء، ذكره الله تعالى في البلاء.

- وإذا ذكره بطاعته، ذكره ربه بمعونته.

- وإذا ذكره بمجاهدته، ذكره سبحانه بهدايته.

- وإذا ذكره العبد بالصدق والإخلاص، ذكره الرب بالخلاص ومزيد الاختصاص.

- وإذا ذكره العبد بالربوبية في الفاتحة، ذكره سبحانه بالرحمة والعبودية في الخاتمة[1].

٢- ذكر الله تعالى نوعٌ من التوجه من جانب العبد إلى مولاه، بل هو نوع من الارتباط والاتصال بالساحة القدسية للحق (تبارك وتعالى)، إنه اقتراب ودنو من الشرف كل الشرف، فكيف لا يحصل الداني العامد على الشرف؟

إنَّ هذه العلاقة الحميمة التي يصنعها الذكر بين العبد وربه تبرز أمامنا بوضوح من خلال طائفة من

---

(١) لاحظ التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢، ص٥٣٤، وقارنه بما في «التبيان» للشيخ الطوسي، ج٢، ص٣١، و«مجمع البيان» للطبرسي، المجلد الأول، ج٢، ص٣٢.

النصوص، مثل قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ذاكر الله سبحانه مجالسه»[1]، وقوله عليه السلام: «ذاكر الله سبحانه مؤانسه»[2].

وطبيعي بعد هذا أن يقابل الله تعالى مثل هذه المشاعر الصادقة من جانب عبده بما يماثلها؛ ولذا ورد في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أكثر ذكر الله عزوجل أحبَّه الله، ومن ذكر الله كثيرًا كُتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[3].

أفلا يكون شرفًا للعبد أن يكون محبوبًا من رب العزة تبارك وتعالى؟

٣- كون المرء قد ذكر ربه يعني، فيما يعنيه، أنه قد ارتفع بنفسه عن مستوى العلائق الدنيوية اليومية، تلك التي تكون - لدى كثير من الناس - قيودًا تمنعهم من مغادرة دائرتها الضيّقة.

---

(١) و (٢) غرر الحكم ودرر الكلم، للآمدي، ص٢٧٧.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦٢.

وهذا الارتفاع، في حد ذاته، له قيمة عظيمة؛ إذ هو أكبر دليل على حرية هذا الإنسان، الحرية التي لم تتمكن الدنيا - بكل ما فيها من ملذات - من مصادرتها عنه.

أجل، إنَّ هذا الإنسان حر، وتتعمق حريته هذه في حياته كلما أثبت أنه ليس عبدًا للدنيا وحطامها الزائل، من خلال زيادة ارتباطه بالله تعالى بزيادة ذكره، تلك الزيادة التي تغسل قلبه وتزيل عنه آثار الرين الناتجة عن الغفلة عن الله؛ ولـذا ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «في الذكر حياة القلوب»[1].

ولعمري إنه لشرف عظيم للمرء أن يؤكد حريته ويعمقها، ليؤكد إنسانيته.

٤- ذكر الله تعالى من موجبات ثواب الدنيا وفوز الآخرة، وكيف لا يكون كذلك بعد أن وصفه الصادق الأمين بأنه خير الأعمال؟ فقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٣٣٨.

أخبركم بخير أعمالكم لكم، أرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهـم ويقتلوكـم؟ فقالوا: بلى، فقال: ذكر الله عزوجل كثيراً...»[1].

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أكثر ذكر الله عزوجل أظلَّه الله في جنَّته»[2].

٥- ذكر الله تعالى موجب للراحة النفسية والاطمئنان، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[3]، وقد قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: «فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا إليه ويريحوا قلوبهم بذكره، فإنه لا هَمَّ للإنسان في حياته إلا الفوز بالسعادة والنعمة، ولا خوف له إلا من أن تغتاله الشقوة والنقمة، والله سبحانه هو السبب الوحيد الذي بيده زمام الخير

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦٢.
(٢) م.ن، ص٣٦٣.
(٣) سورة الرعد، الآية ٢٨.

وإليه يرجع الأمر كله، وهو القاهر فوق عباده والفعّال لما يريد، وهو ولي عباده المؤمنين به اللاجئين إليه، فذكره، للنفس الأسيرة بيد الحوادث الطالبة لركن شديد يضمن له السعادة، المتحيرة في أمرها وهي لا تعلم أين تريد ولا أنّى يراد بها، كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه وتستريح منه نفسه، والركون إليه والاعتماد عليه والاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق، وهو يجد من نفسه نشاط الصحة والعافية آنًا بعد آن»[1].

أجل، يا لها من سعادة ويا له من شرف أن يجد الإنسان ربه إلى جانبه، كهفًا يحميه من هجمات الخوف والقلق، وحارسًا يقيه من كل دواعي الاضطراب النفسي! ويا له من شقاء، وذلك الذي يجده البعيد عن الله الناسي

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١١، ص٣٥٥، ولاحظ أيضًا ما في التبيان، ج٦، ص٢٤٩، ومجمع البيان، المجلد الرابع، ج١٣، ص١٧٢.

لذكره، حينما تتنابه الهموم وويلات الحياة فلا يبصر لديه منقذًا! إنه الشقاء الذي صوَّرته الآية الكريمة: «ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى»[1].

وهو الشقاء المرير الذي عرفه إنسان هذا العصر، حينما ابتعد عن الله وغفل عن ذكره فصارت حياته مسرحًا للقلق ولأنواع مختلفة من الأمراض النفسية والعقلية والسيكوسوماتية.

وارتباط ظهور كثير من هذه الأمراض أو شدتها بفقدان الإحساس الديني ليس أمرًا يُدَّعى، فقد ذهب الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس **William James** إلى أنَّ: «الإيمان بالله يحمي الإنسان من القلق ومن تقلبات الحياة وصعوباتها، والرجل المتدين يظل محتفظًا دائمًا

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٤، وراجع الميزان، ج١٤، ص٢٢٥.

باتزانه مستعدًا لمواجهة ما قد تأتي به الحياة من صعاب وأزمات»[1].

وهذا ما أكده عالم النفس المعروف كارل يونج Jung حين ذكر أنه لم يجد بين مرضاه، ممن تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين، مريضًا واحدًا لم يكن أساس مشكلته فقدانه النظرة الدينية للحياة[2].

هذا، وقد ذكر العلماء[3] أنَّ الذكر على ثلاثة ضروب: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر بالجوارح. فأما الذكر بالقلب فيكون بالتفكر في أسرار مخلوقات الله تعالى وفي الدلائل الدالة عليه سبحانه وغير ذلك، وأما الذكر باللسان فيكون بحمده وتسبيحه وتمجيده وقراءة كتابه

---

(١) و (٢) الإسلام والعلاج النفسي الحديث: د. عبد الرحمن عيسوي، ص١٧٨.
(٣) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢، ص٥٣٤، ورياض السالكين لابن معصوم المدني، ص١٥٤.

وغير ذلك، وأما الذكر بالجوارح فبأن تكون الجوارح مستغرقة في الأعمال المأمورة بها ومنتهية عن الأعمال التي نُهيت عنها.

ويُلاحظ أنَّ «الذكر» قد أتي به مطلقًا في الدعاء الذي بين أيدينا، مما يعني أنَّ الذكر بكل أنواعه هو شرف للذاكرين، غاية الأمر أنَّ لهذا الشرف درجات كما أنَّ لأنواع الذكر درجات.

(ب) «ويا من شكره فوز للشاكرين»:

هذه هي الصفة الثانية التي مدح الإمام عليه السلام بها ربه في مقدمته المدحية، وهي صفة مرتبطة - كما هو واضح - بموضوع الشكر لله تعالى.

وهذا الموضوع قد ورد الحث والتأكيد عليه، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الطاعم الشاكر له

من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابـر، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعـاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة»[2].

ولقد ذكر علماؤنا في الأخلاق أنَّ حقيقة الشكر تكمن في معرفة أنَّ النعم كلها من الله تعالى، فهو المنعم، والوسائط كلها مسخرات من جهته أولاً، وفي الفرح بالمنعم ثانياً؛ وذلك بأن يكون فرحه بالنعمة من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم، فلا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومقرب إلى الله سبحانه، وفي العمل بموجب هذا الفرح أخيرًا؛ وذلك

(١) و (٢) الإسلام والعلاج النفسي الحديث: د. عبد الرحمن عيسوي، ص١٧٨.

بالقيام بما هو محبوب للمنعم، بقصد الخير وإضماره للناس، وبإظهار الشكر باللسان، وباستعمال نعم الله في طاعته[1].

ومن هنا نعرف أنَّ الشكر أيضًا - أي كما الذكر - يرتبط بكل من القلب واللسان وسائر الجوارح[2].

لكن، لماذا كان شكر الله تعالى «فوزًا» للشاكرين في نظر السجاد عليه السلام؟

يمكن تعليل ذلك بمجموعة من الوجوه:

١ - الشكر يعني تقييد النعم الموجودة فعلاً، فقد ورد في الأخبار أنَّ كفران النعم وعدم تأدية الشكر لله عليها يعرِّضها للزوال، كما في قول الإمام علي عليه السلام مثلاً: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم، فلا تنفِّروا أقصاها بقلة الشكر»[3].

---

(١) للتفاصيل انظر جامع السعادات، ج٣، ص٢٣٣ - ٢٣٧.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة «شكر».
(٣) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٥٣.

وورد أيضًا أنَّ الشكر لله تعالى هو القيد الذي يمنع النعم من الزوال، فقد قال الصادق عليه السلام: «مكتوب في التوراة اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شُكرت، ولا بقاء لها إذا كُفرت...»[1].

فبأداء الشكر يضمن الإنسان الشاكر بقاءه مستظلاً بفيء من النعم الإلهية، من دون أن تغادره، وبقاء هذه النعم سيعني - كما مضى في بيان معنى الشكر - مزيدًا من الاستعمال لها في أوجه طاعة الله، مما يعني - بالنتيجة - الفوز الواضح.

٢- الشكر، في حد نفسه، يوجب الثواب والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى، وكثيرة هي الروايات والأخبار الدالة على هذا، حتى إنَّ بعضها دلَّ على أنَّ القليل من الشكر يعني استحقاق الجنة، كما هي الرواية الآتية: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ الرجل منكم ليشرب

---

(١) م. ن، ص٥٥.

الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيُسمِّي، ثم يشرب فيُنحِّيه وهو يشتهيه فيحمد، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب ثم ينحِّيه فيحمد الله، فيوجب الله عزوجل له بها الجنة»[1].

فأي فوز أوضح من هذا ؟

٣- الشكر يعني الازدياد، وهو ما ورد التصريح به في قوله تعالى: «وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد»[2]، وفي قول الرسول ﷺ: «ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة»[3] وفي قوله (صلوات الله عليه وعلى آله): «من يشكر الله يزده الله»[4].

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٧.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٧٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٤١.

وبذا يكون شكر الله (جلَّ شأنه) طريقًا ممهّدًا أمام من يرنو إلى الازدياد، و«الفوز» بمزيد من النعم الإلهية.

٤- الشكر هو طريق العبادة المثلى، وهذا ما تحدث عنه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في كلمة مشهورة: «إنَّ قومًا عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجَّار، وإنَّ قومًا عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار»[1].

صحيح أنَّ الأقسام الثلاثة من الناس قد عبدوا الله واستحقوا المثوبة واجتنبوا العقوبة بالنتيجة، ولكنْ فرقٌ واضح بين من عَبَدَ الله تعالى رغبةً وطمعًا في جنته أو خوفًا ورهبةً من عقابه، وبين من عَبَدَه لا لهذا ولا لذاك، أي لم يكن الثواب والعقاب محطَّ نظره وإن كان يعلم بأنه سيُثاب ولن يُعاقب، وإنما عَبَدَ الله لأنه رأى نعمه تملأ وجوده كله، وفيوضاته تحيط به من كل ناحية، فتيقن بأنَّ

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة، ٢٣٧.

أقل ما يجب عليه - بحكم عقله ووجدانه - إزاء كل هذه المكرمات أن لا يفعل ما يُسخط المنعمَ عليه، اعترافًا منه بالجميل.

وبذا تكون النفسية الراغبة في شكر الله داعيةً صاحبَها إلى التقيد بنهج الله وأوامره، فيكون الإنسان عابدًا لله بغض النظر عن مسألتي الثواب والعقاب، وهذه أعلى درجات العبادة، وفيها يقول علي عليه السلام أيضًا: «لو لم يتوعَّد الله على معصيته لكان يجب ألاّ يُعصى شكرًا لنعمه»[1].

(جـ) «ويا من طاعته نجاة للمطيعين»:

الصفة الأخيرة التي مدح الإمام السجاد عليه السلام ربه بها لا ينبغي إطالة الكلام حولها لفرط وضوحها، وهل هناك أوضح من أن تكون طاعة الله تعالى نجاةً لمن يطيعه؟

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٩٠

كيف وطاعة الله هي التي تنجي العبد من المهالك وتسويلات الشيطان وتقوده إلى بر الأمان حيث رحمة الله ورضوانه؟ بل إنَّ طاعة الله - كما في الأخبار - هي التي تُدني مقام العبد من مقام النبي الأكرم ﷺ، فقد قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنَّ ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإنَّ عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته»(١).

لذا، وجدنا الروايات والأخبار تتضافر لبيان فضل طاعة الله ومنزلة المطيع عنده (سبحانه)، وهو ذا علي عليه السلام، مرة أخرى، يريدنا أن نتصور بأنفسنا هذا الفضل، فيقول: «لم تَخْلُ من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته؟»(٢).

---

(١) م.ن، الحكمة ٩٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة، ٢٢٣.

أجل، أطلِقْ لخيالك العنان، ودعه يحلق في الآفاق، ليتصور ما يشاء من منزلة يبلغها المطيع لله تعالى، فإنَّه مهما طار وحلَّق، فسيبقى أعجز من أن يصل إلى كنه تلك المنزلة!

وشأن الطاعة كشأن الذكر والشكر، في ارتباطها بكل من القلب واللسان وسائر الجوارح: أما ارتباطها بالأخيرين فمما لا يحتاج إلى كلام؛ لوضوح أنَّ الإنسان قد يستعملهما في طاعة الله وقد لا يفعل.

وأما ارتباط الطاعة بالقلب فيدل عليه إسناد الإثم والمعصية إلى القلب في مثل قوله تعالى: «ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبُه...»[1].

إذ أنَّ كتمان الشهادة «لما كان إثمًا مقترفًا بالقلب أسند إليه؛ لأنَّ إسناد الفعل إلى الجارحة التي يُعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هـذا مما أبصرتـه عيني

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي؟»[1].

وواضحٌ إمكان إسناد الطاعة إلى القلب، بعد إمكان إسناد المعصية إليه.



في ختام المقدمة المدحية لنا أن نتوقف برهة لنلحظ أمرًا مهمًا هو: إنَّ لهذه المقدمة دورين في آن واحد، دورًا صاعدًا ودورًا نازلاً: أما دورها الصاعد فيتجلى من خلال كونها مدحًا لله وثناءً عليه، فهي تمجيد لارتباط صاعد من قلب الإنسان إلى ربه العظيم، وأما دورها النازل فليس إلاَّ عبارة عن تعميق المفاهيم التي تحملها في قلب المؤمن، لفرط حاجته إليها.

فالمسألة، إذن، ليست مجرد أن يمدح العبد ربه بصفات يحب الله أن يمدح بها، بل هي - إلى جانب

(١) الكشاف للزمخشري، ج١، ص٣٢٩، ولاحظ أيضًا مجمع البيان، المجلد الأول، ج٣، ص٣٨٣.

ذلك - تذكير من العبد لنفسه، وترسيخ ذاتي في أعماق قلبه ووجدانه، سعيًا وراء مزيد من الثبات الفكري والاستقامة السلوكية العملية في حياته اليومية.

ويمكن تلخيص أهم ما يريد الداعي ترسيخه في نفسه في أمرين رئيسين:

أ- غنى الله المطلق عنا، فهو، سبحانه، ليس بمحتاج بتاتًا إلى أي من صنوف الارتباط به التي قد يأتي بها العبد، بل هو الغني بنفسه، الذي لا يتضرر بكفر كل من في الأرض:

- «إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإنَّ الله لغني حميد»[١].

- «له ما في السموات وما في الأرض، وإنَّ الله لهو الغني الحميد»[٢].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٨.
(٢) سورة الحج، الآية ٦٤.

- «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد»[1].

وهذه الفكرة مستوحاة من المقدمة المدحية من خلال تركيز هذه المقدمة على إرجاع أثر كل شكل من أشكال التقرب إليه سبحانه إلى العبد نفسه مما يشير إلى عدم الأثر الراجع إلى الله تعالى.

وهي فكرة مهمة، لها أكبر الأثر في رد أصحاب بعض النفوس المريضة عن غيهم، أولئك الذين إذا أتوا بشيء من الطاعات والقربات خُيِّل إليهم أنهم قد أسدوا إلى ربهم خدمة عظيمة تفضلوا بها عليه، وصاروا ينتظرون في مقابلها خدمات وخدمات.

لربما لا يقرون بهذا إذا ما رجعوا إلى عمق قناعاتهم العقلية، لكنهم يجسدونه بتصرفاتهم في كثير من مواقع الحياة وظروفها، أليس إذا أصابت أحدهم مصيبة قال:

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.

كيف يعاملني الله هكذا وأنا الذي لم أترك الصلاة يوماً؟

ب- المنتفعون نحن، أجل، فأي نوع من أنواع القربات نأتي به فإنه يكون راجعًا إلينا بأعظم المكاسب: فذكرنا له سبحانه شرف لنا، وشكره فوز لنا، والطاعة نجاة لنا، فليس وراء الارتباط بالله إلا النفع لنا دنيًا وآخرة.

والسر في ذلك هو أنَّ الله تعالى، العالم بشؤوننا الخبير بحالنا، لم يأمرنا إلاَّ بما هو في مصلحتنا نحن (ما دام سبحانه ليس بمستفيد كما عرفنا)، ولم ينهنا إلاَّ عما هو في ضررنا.

«إنَّه - أي الله سبحانه - لم يأمرك إلاَّ بحسن، ولم ينهك إلاَّ عن قبيح»[1].

ومن هنا يكون السير في طريق الله من أهم ما تدعونا إليه عقولنا، ويكون الابتعاد عنه مخالفة واضحة للعقل.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب، ٣١.

هذا، وتجمع بين الأمرين المراد ترسيخهما الروايةُ التي يقول راويها: «سألتُ الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فقلت له: لم خلق الله الخلق؟»

فقال: «إنَّ الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرَّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص٣١٣.

الفصل الثاني:

أمور تُطلب

«صلِّ على محمد وآله، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة».



بعد فراغ الإمام السجاد عليه السلام من مقدمته المادحة انتقل إلى طلب مجموعة من الأمور من الله تعالى، لكنه قبل أن يبدأ بذكر تلك الأمور صلَّى على النبي الأكرم وآله الطاهرين؛ لأنَّ هذا من آداب الدعاء كما أفادت جملة من الأخبار، منها:

- **علي بن أبي طالب** عليه السلام: «كل دعاء محجوب عن

السماء حتى يُصلَّى على محمد وآله»[1].

- **علي** عليه السلام **أيضًا**: «إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم سل حاجتك، فإنَّ الله تعالى أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى»[2].

- **الصادق** عليه السلام: «إياكم وأن يسأل أحد من الله عزوجل شيئًا من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عزوجل والمدحة له والصلاة على النبي وآله عليه وعليهم السلام ثم يسأل حوائجه»[3].

- **الصادق** عليه السلام: «لا يزال الدعـاء محجوبًا حتى يُصلّـى على محمد وآل محمد»[4].

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١١.
(٢) م. ن، ص٣١٣-٣١٤.
(٣) بحار الأنوار ،ج٩٠، ص٣١٥.
(٤) م.ن ، ص٣١٦.

وثمة كلام بين العلماء في أنَّ الصلاة على محمد وآله أتنفعهم في شيء، بأن تكون سببًا لزيادة أجرهم ورفعة مرتبتهم، أم لا، بأن تكون فوائدها مقصورة على من يصلي عليهم؟ والتحقيق في هذه المسألة خارج عن نطاق هذا البحث؛ ولذا لا أتعرض له ههنا[1].

وبعد الصلاة على النبي وآله طلب الإمام من ربه ثلاثة أمور:

١- شغل القلوب بذكره عن كل ذكر.

٢- شغل الألسن بشكره عن كل شكر.

٣- شغل الجوارح بطاعته عن كل طاعة.

وأمام هذه المطالب حريٌّ بنا أن نتساءل:

أولاً: عرفنا مما تقدم من حديث أنَّ كلاً من الذكر

---

(١) يراجع لذلك كتاب (مصابيح الأنوار) للسيد عبد الله شبر، ج١، ص٤٢٠-٤٢٢.

والشكر والطاعة يرتبط بكل من القلب واللسان وسائر الجوارح، فما وجه ربط الإمام الذكر بخصوص القلب، والشكر بخصوص اللسان، والطاعة بالجوارح؟

ثانياً: كيف يطلب الإمام من الله أن يجعلنا لا نذكر غيره ولا نشكر غيره ولا نطيع سواه؟

ألا يعني هذا بتر كل صلاتنا بالحياة من حولنا، والانقطاع عن الحياة الاجتماعية تمامًا؟

ثم، أليس هذا متنافيًا مع ما في روايات أخرى من ضرورة الاعتراف بوجود المعطين من البشر ومن حتمية ذكر فضلهم وشكرهم ومن لزوم طاعة بعض البشر؟ وإليك نماذج من هذه الروايات:

- **الصادق** عليه السلام: «المعطون ثلاثة: الله رب العالمين، وصاحب المال، والذي يجري على يديه»[1].

---

(١) الخصال، للشيخ الصدوق، ص١٣٤.

- **السجاد** عليه السلام: «أما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه وتكسبه المقالة الحسنة وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله عزوجل، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرًا وعلانية، ثم إن قدرت على مكافأته يومًا كافأته»(١).

- **السجاد** عليه السلام: «إنَّ الله يحب كل قلب حزين، ويحب كل عبد شكور، ويقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانًا؟ فيقول: بل شكرتك يا رب، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره»، ثم قال: «أشكركم لله أشكركم للناس»(٢).

- **أمير المؤمنين**: «أطع العاقل تغنم»(٣).

---

(١) ميزان الحكمة، ج٥، ص١٥٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١١٠.

- هو عليه السلام: «من أمرك بإصلاح نفسك فهو أحق من تطيعه»[1].

- **الهادي** عليه السلام: «من جمع لك وُدَّه ورأيه فاجمع له طاعتك»[2].

أقول: أما فيما يرتبط بالتساؤل الأول فقد ربط الإمام عليه السلام الذكر بخصوص القلب لأنه إنما يطلب من ربه أعلى درجات الذكر وأشرفها منزلة. قال ابن معصوم المدني: «اعلم أنَّ للذكر درجات:

الأولى: أن يكون باللسان مع غفلة القلب، وهذا أضعفها وإن كان مندوبًا إليه أيضًا، قال بعض أرباب القلوب: ذكر اللسان مع خلو القلب عنه لا يخلو من فائدة لأنه يمنعه من التكلم باللغو ويجعل لسانه معتادًا بالخير (...).

---

(١) ميزان الحكمة، ج٥، ص٥٧٠.
(٢) المصدر والصفحة ذاتهما.

الثانية: الذكر بالقلب مع عدم استقراره فيه ولا يتوجه إليه إلاَّ بالتكلف والاجتهاد.

الثالثة: أن يكون بالقلب ويستقر فيه بحيث لا يتوجه القلب إلى غيره إلا بالتكلف.

الرابعة: أن يكون بالقلب مع استقراره فيه واستيلائه عليه بحيث لا يشغل عنه أصلاً، وهذه مرتبة المحبة، والذاكر في هذه المرتبة قد يبلغ مقام الفناء في الله، بحيث يغفل عن نفسه وعن غيرها حتى عن الذكر، فلا يجد في نفسه إلا المذكور (...).

إذا عرفت ذلك ظهر لك سر قوله عليه السلام: «واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر» فإنه طلب لأكمل أفراده وأرفع مراتبه التي هي مرتبة المحبة ومقام الفناء، فاعلم»[1].

بل ذهب بعض الأعلام إلى أنَّ الذكر بالقلب هو

(١) رياض السالكين، ص١٥٥.

الأصل في معنى «الذكر»، «وتسمية اللفظ ذكرًا إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي، والذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل»[1].

وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن يقال إنَّ ربط الذكر بالقلب بخصوصه إنما هو لمراعاة التناسب الموجود بينهما، ذلك التناسب الذي وردت الإشارة إليه في الروايات، فالقلب هو سيد الجوارح وإمامها: قال الصادق عليه السلام: «إنَّ منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس»[2].

كما أنَّ الذكر هو خير الأعمال وإمامها: قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «... واعلموا أنَّ خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص١٣٦.
(٢) ميزان الحكمة، ج٨، ص٢١٦.

الشمس ذكر الله تعالى...»[1].

والحديث عن «التناسب» ههنا ليس حديثًا عن أمر ظاهري شكلي لا مساس له بالأعماق، بل هو - في جوهره - حديث عما ينبغي أن يُشغل القلب به.

فإذا كان الإنسان يعلم بأن قلبه هو سيد جوارحه وأشرفها، فجدير به حينئذ أن لا يشغل هذا السيد إلا بما هو سيد الأعمال وأشرفها، اعترافًا بحقه ومراعاةً لشأنه؛ إذ لا يليق - بإجماع العقلاء - أن ينشغل السيد الشريف بسفاسف الأمور وتوافهها عما هو جدير بالانشغال به.

وهل يعني هذا أنَّ على القلب أن يتناسى الأمور الحياتية الأخرى تماماً؟ هذا ما ستأتي الإشارة إليه عند التعرض للتساؤل الثاني المطروح سابقًا.

وربط الشكر باللسان بخصوصه إنما هو من جهة كون الشكر باللسان «أدل أفراد الشكر على الاعتراف

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٤٠.

بالنعمة»[1]، إذ أنَّ الدلالة هنا بمكان واضح من الصراحة والجلاء، ثم إنَّ المأخذ الوحيد الذي قد يؤخذ على الشاكر بلسانه هو احتمال كونه مرائيًا بشكره الظاهري هذا، لكنَّ هذا المأخذ غير وارد في مقامنا نظرًا لكون القلب هنا قلبًا ذاكرًا لله تعالى بإخلاص تام لا تشوبه أية شائبة من رياء أو تظاهر.

وربط الطاعة بالجوارح لا كلام فيه؛ لأنَّ الإمام لم يستثنِ القلب واللسان، بل طلب أن تكون الجوارح بشكلٍ عام مشغولة بالطاعة، وهذا يشمل اللسان، والقلب أيضًا.

ولو أنَّ الإمام كان قد عبَّر بـ«سائر الجوارح» ليخرج القلب واللسان لما كانت في هذا أية غرابة أيضًا بعد أن طلب شغل القلب بالذكر واللسان بالشكر؛ إذ واضحٌ كون الذكر والشكر من أنواع الطاعة وأشكالها، فبعد

---

(١) رياض السالكين، ص١٥٥.

انشغال اللسان والقلب بما يناسبهما من الطاعات لا يبقى من المستغرب أن يطلب الإمام عليه السلام أن تنشغل الجوارح الأخرى بالطاعات المناسبة لها.

هذا كله فيما يرتبط بالتساؤل الأول.

وأما فيما يرتبط بالتساؤل الآخر فما نعرفه عن الإسلام من واقعية موضوعية يجعلنا - في حد ذاته - نقطع بأنَّ الله تعالى لا يريد أن نقطع كل الوشائج التي تصلنا بالحياة من حولنا، وننكفئ على ذواتنا بحجة أننا لا نريد أن نذكر أو نشكر أو نطيع غير الله تعالى. هذا فضلاً عن الروايات التي دعتنا إلى أن نفتح أبواب الشكر والذكر والطاعة على الحياة من حولنا.

لكن هذا كله لا يتنافى مع ما يطلبه الإمام السجاد عليه السلام ههنا؛ ذلك أنَّ الإسلام وإن كان قد أراد منا أن نرتبط بالحياة ومظاهرها ضمن الحدود الشرعية إلاَّ أنَّ هذا ارتباط ثانوي ضعيف، أما الارتباط الأولي القوي

فهو بالله سبحانه وتعالى.

أجل، الإنسان المؤمن مطالَب بأن يعيش مع الله تعالى بفكره ومشاعره وكل جزئيات سلوكه، فيحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه ويفكر كما يحبه الله أن يفكر ويتحرك في جنبات الحياة وفقًا لما يدلّه عليه الله.

وهذا يعني أنَّ الإنسان المؤمن يذكر ويشكر ويطيع غير الله ولكن من خلال الله، بمعنى أنه لا يترك نفسه مرخى عنانها لتذكر أو تطيع أو تشكر من تشاء، بل يسوسها بحزم لكي لا تذكر إلاَّ من دعا الله إلى ذكره، وكذلك الحال في مسألتي الشكر والطاعة.

وهكذا لا يكون الإنسان المؤمن معزولاً عن الحياة وما تقتضيه، ولكنه يعيش الحياة من خلال أوامر الله ونواهيه.

وهكذا كانت حال أهل البيت عليهم السلام، فقد روي - مثلاً

- أنه حينما حضرت الوفاة سيدتنا الزهراء عليها السلام استدعت بعلها عليًا عليه السلام وقالت له: «يا ابن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني»، فبم أجابها علي عليه السلام ؟

لقد قال لها: «معاذ الله، أنت أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفًا من الله من أن أوبّخك بمخالفتي...»[1].

إنَّ هذه الكلمات من علي عليه السلام لتستحق منا أن نتأملها بعقول واعية متفتحة، لندرك من خلالها أنَّ الزهراء عليها السلام ما كان لها أن تخالف عليًا أو تخونه طرفة عين لأنها «أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفًا من الله»، من أن تفعل ذلك، فالمسألة إذن مرتبطة بالله قبل أن تكون مرتبطة بالزوج، ومن خلال الارتباط بالله تتضح كيفية الارتباط بالزوج، بل بالحياة بأسرها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٩١.

ولنأخذ هنا نموذجًا ناصعًا آخر من سيدة نساء العالمين أيضًا:

عن أبي سعيد الخدري قال: «أصبح علي بن أبي طالب عليه السلام ذات يوم ساغبًا، فقال: يا فاطمة هل عندك شيء تغذينيه؟ قالت: لا والذي أكرم أبي بالنبوة وأكرمك بالوصية، ما أصبح الغداة عندي شيء، وما كان شيء أُطعمناه مذ يومين إلا شيء كنت أؤثرك به على نفسي وعلى ابنيَّ هذين الحسن والحسين.

فقال علي: يا فاطمة ألا كنت أعلمتيني فأبغيكم شيئًا؟

فقالت: يا أبا الحسن إني لأستحيي من إلهي أن أكلف نفسك مالا تقدر عليه»[1].

أجل، لم تقل: «أستحيي منك»، بل قالت: «أستحيي من إلهي»، وهنا تكمن القضية كلها، قضية أساس

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٥٩.

الارتباط الصحيح بالحياة وبالمجتمع.

وبذا تكون طاعة من أمر الله بطاعته طاعةً لله في الحقيقة، فلا تتنافى مع طلب الإمام السجاد عليه السلام انحصار الطاعة بالله تعالى، وكذلك الحال في الشكر والذكر. ومع وجود هذا الانحصار لا يعتد المؤمن بمخالفة الآخرين مادام مطيعًا لله ولمن أمره الله بإطاعته، قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من أطاع الله سبحانه لم يضره من أسخط من الناس»[1].

وبهذه الطريقة يريدنا الإسلام أن ننصهر في البوتقة الإيمانية الإلهية فكرًا وشعورًا وسلوكًا، فلا تكون علاقتنا بالله تعالى أشبه بعلاقة الموظفين برؤسائهم في العمل، فنطيع الله في مواسم معينة في السنة وساعات معينة في اليوم نؤدي خلالها صلاتنا وصيامنا وحجنا، ونقضي غيرها من الأوقات كيفما نشاء ونشتهي.

ثم، إنَّ المؤمن ليس الشخصية التي تعيش الانفصام

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٤٥.

بين السلوك من جهة وبين الفكر والشعور من جهة أخرى، فكما أنه مطالَب بأن يعيش في سلوكه مع الله دومًا، فكذلك الحال في فكره وشعوره، ليكن المسلم الحق برادةً من حديد، تنجذب بكل كينونتها إلى قوة الجذب الحقَّة، فتكون بذلك محقِّقة للغرض الذي خُلقت له، وحاصلة على السعادة التي هيّئت لها: «وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلاَّ ليعبدون»(١).



اتضح من خلال ما تقدم أنَّ الإمام السجاد عليه السلام - بعد أن كان في مقدمته المادحة قد أكَّد مسألة ضرورة الاعتقاد الراسخ بأنَّ الارتباط بالله تعالى لا يجر على العبد إلاَّ كل ما فيه مصلحته وخيره - قد نبَّه ههنا على أنَّ التحرك العملي في الحياة لابد أن يكون مطابقًا لما هو المعتقَد، فعلى المسلم المؤمن أن يتحرك في الحياة بقلب ذاكر لله، ولسان شاكر له، وجوارح مطيعة له، بل إنَّ الله يجب أن يكون «الشغل» الشاغل الذي تُعرف الحياة من خلاله.

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

الفصل الثالث:

حديث عن الفراغ

«فإن قدَّرت لنا فراغاً من شغل فاجعله فراغ سلامة، لا تدركنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه سأمة، حتى ينصرف عنا كُتَّاب السيئات بصحيفة خالية من ذكر سيئاتنا، ويتولى كُتَّاب الحسنات عنّا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا».



الفراغ أمر تكاد لا تخلو منه حياة أي فرد منَّا، إذ واضحٌ أنه لا يمكن بحال أن يبقى الإنسان مشتغلاً بشواغله الحياتية طوال مدة حياته من دون أن تكون لديه لحظة من فراغ، والفراغ - إلى هذا - أمر ينطوي على كثير من الخطورة على الإنسان، الخطورة التي كان القدماء قد

أدركوها أيضًا فقال شاعرهم:

إنَّ الشباب والفراغ والجدة مفسدة للعقل أيُّ مفسدة[1]

لكن، أي فراغ هذا الذي يعنيه الإمام السجاد عليه السلام؟ أهو الفراغ المعروف من أي شغل من الأشغال، أم هو فراغ من شغل خاص؟

كلمة «شغل» هنا قد وردت مطلقة، فلم تُقيَّد بما يدل على شغل من نوع خاص؛ ولذا حملها الشُرَّاح على إطلاقها، وذكروا أنَّ الإمام يتحدث هنا عن الفراغ من أي شغل من الأشغال.

إلاَّ أنه لربما كان ثمة مجال لربط كلمة «شغل» هنا بالفعل «اشغل» الوارد فيما سبق نظرًا لوحدة الجذر الاشتقاقي لهما، فيقال إنَّ المراد هنا هو الفراغ من الشغل الذي كان الإمام قد طلب الانشغال به في الفقرة

---

(١) لسان العرب، مادة فسد.

السابقة، أي الانشغال بالله تعالى ذكرًا وشكرًا وطاعة. فالمؤمن وإن كان يسعى جاهدًا إلى البقاء مع الله سبحانه في كل مجالات حركته في الحياة، معرَّض للضعف الذي ينتاب البشر بطبيعتهم فيفرغ قلبه عن ذكر الله ولسانه عن شكره وتفتر جوارحه الأخرى في طريق طاعة الرب، وهذا هو الفراغ الذي يخشاه السجاد عليه السلام هنا، ويطلب فيه السلامة.

ولربما يؤيَّد هذا الاحتمال بأنَّ أداة الشرط المستعملة هنا هي «إنْ»، والأصل فيها استعمالها في مواقع عدم الجزم بوقوع الشرط[1]. ومن الواضح أنَّ الفراغ من أي شغل من الأشغال أمر حتمي الحصول في حياة أي إنسان، فكل إنسان لديه فراغ ما من شغل ما، فلو كان هذا هو المقصود لاستعملت أداة الشرط «إذا» التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط، ولما استعملت «إنْ».

فاستعمال «إِنْ» هنا قرينة على أنَّ المراد هو الفراغ من

---

(١) «المختصر»، للتفتازاني، ج١، ص١٣٩.

الشغل المذكور سابقًا بلفظ الفعل «اشغل»، إذ أنَّ هذا الفراغ غير متيقن التحقق، فهو ناتج عن غلبة الضعف الإنساني، وهذه الغلبة تحصل عند بعض الناس ولا تحصل عند الأولياء المقربين المحبين لله تعالى، فهي غير مقطوعة الوقوع، ولذا ساغ استعمال «إِنْ» الشرطية.

وعلى أية حال، فقد طلب الإمام السجاد عليه السلام أن يكون الفراغ «فراغ سلامة»، وفسَّر صاحب رياض السالكين السلامة هنا بأنها السلامة من الآفات الدينية والدنيوية، وأوضح مراده بقوله: «فلا يكون عدم اشتغالنا به لتهاون في القيام به أو لعلّة توجب القعود عنه كمرض ونحوه»[1].

وهذا التفسير وإن كان وجيهًا في نفسه، غير ناظر إلى الدلالة السياقية، أي إلى ربط هذا الكلام بما بعده، إذ يمكن القول - بالنظر إلى الجملتين التاليتين لـ «فراغ

---

(١) رياض السالكين، ص١٥٥.

سلامة» - إنَّ المراد هنا السلامة من التبعات ومن السأم.

فلا يمكننا أن ننجو من خطورة الفراغ إلاَّ إذا حُظينا بالسلامة فيه، بحيث:

أ ـ «لا تدركنا فيه تبعة»، أي لا نقضي فراغنا هذا في ارتكاب المعاصي التي نُتبع بها بعد ذلك ونؤاخذ عليها.

ومسألة ارتباط الفراغ بحصول الانحراف بمختلف أشكاله من المسائل التي باتت معروفة لدى الجميع، إذ لا ينكر أحد مدى خطورة الفراغ من هذه الناحية خصوصًا على الشُبَّان والمراهقين، وما كثرة السرقات وتعاطي المخدرات وتفشي الاعتداءات المختلفة في كثير من المجتمعات البشرية اليوم إلاَّ علامة على انتشار الفراغ والبطالة فيها.

وإلى دور الفراغ في الإفساد أشار الإمام علي بن أبي

طالب عليه السلام بقوله: «من الفراغ تكون الصَّبوة»[1].

ب ـ «ولا تلحقنا فيه سأمة»، لربما لا يقضي المرء فراغه في ارتكاب الأمور المحرَّمة شرعًا، لكنه في المقابل لا يفعل شيئًا على الإطلاق، لا لدنياه ولا لآخرته، بل يضيع أوقاته سدى، فينتابه حينئذ الضجر ويستولي على قلبه السأم، وفي مثله قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله يبغض الصحيح الفارغ، لا في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة»[2].

إنها حالة الكسل التي يلذ فيها للمرء أن يستولي الفتور وخمود الهمة على نفسه، وهي الحالة التي لا يرجى من ورائها أي خير؛ قال الإمام الباقر عليه السلام: «لا خير في الكسل، إذا كسل الرجل أن يتم ركوعه وطهوره فليس فيه خير لأمر آخرته، وإذا كسل عما يصلحه بمعيشة دنياه

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٦٠.
(٢) ميزان الحكمة، ج٧، ص٤٥٨.

فليس فيه خير لأمر دنياه»[1].

نعم، يضيع الإنسان لحظات عمره سدى ولا ينتبه إلى خطئه الشنيع هذا، لكن سرعان ما يكشف عنه غطاء العمى فيندم حتى وإن دخل الجنة، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أهل الجنة لا يندمون على شيء من أمور الدنيا إلا على ساعة مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله تعالى فيها»[2].

هو ذا الإسلام بهذا يبيّن الأهمية الكبيرة التي يوليها لوقت الإنسان وللحظات عمره المحدودة، رغبةً منه في هداية الإنسان إلى أفضل السبل لتحقيق خيره وصلاحه دنيًا وآخرة.

فإذا حقَّقنا شرطَيْ السلامة في الفراغ فستكون النتيجة أن «ينصرف عنا كُتَّاب السَّيئات بصحيفة خالية من ذكر سيئاتنا»، نظرًا لكوننا لم نقضِ أوقات الفراغ

(١) مجموعة ورَّام، ج١، ص٣٠٣.
(٢) إرشاد القلوب، للديلمي، ج١، ص٥٢.

في ارتكاب المعاصي، وأن «يتولى كُتَّاب الحسنات عنا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا»؛ وذلك لأننا لم نهمل أنفسنا تمامًا في أوقات الفراغ بحيث لا نفعل أي شيء، بل قمنا باستغلال تلكم الأوقات في أمور الخير المقرِّبة لنا إلى الله تعالى.

وهنا لابد من ملاحظة شيء، وهو هذا الحديث من الإمام السجاد عليه السلام عن الملائكة الموكَّلين بكتابة أعمال العباد (كُتَّاب السيئات وكُتَّاب الحسنات)، وهو حديث مفاجئ لم يحتج إلى سابق تمهيد، مما يعني أنَّ مسألة رقابة الملكين لأعمال العبد من المسائل التي تبقى مستحضَرة على الدوام في وجدان الأئمة عليهم السلام، ومن المسائل التي يريدون لها أن تكون متحركة في وجدان الآخرين أيضًا. يُروى أنَّ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام كان إذا مرَّ برجل يتكلّم بفضول الكلام قال له: «يا هذا، إنَّك تملي على كاتبيك كتابًا إلى ربك فتكلَّم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص٣٢٧.

وكون أعمال العبد خاضعة للمراقبة من القضايا التي أكدَّها الإسلام بنحو خاص، حتى أشارت النصوص الإسلامية إلى مجموعة من الرقابات مثل:

أ ـ **رقابة الجوارح**: فالجوارح تراقب أعمال العبد لتؤدي دور الشاهد يوم القيامة، قال تعالى: «اليوم نختم على أفواههم، وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون»(١).

ب ـ **رقابة الملكين الكاتبين للأعمال**: قال تعالى: «وإنَّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون»(٢).

جـ ـ الرقابة الإلهية، قال تعالى:

- «وكان الله على كل شيء رقيبًا»(٣).
- «إن الله كان عليكم رقيبًا»(٤).

---

(١) سورة يس، الآية ٦٥.
(٢) سورة الانفطار، الآية ١٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٢.
(٤) سورة النساء، الآية ١.

وجاء في دعاء كميل: «وكنت أنت الرقيب عليَّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم...».

د ـ **الرقابة الداخلية الذاتية:** أي الوازع الحي والوجدان اليقظ الذي لا يدع الإنسان يفعل ما يشاء من دون أن يقرّعه ويوبّخه ويؤذيه بتوبيخه وتقريعه.

وهذا النوع من الرقابة ورد في الروايات الحث على ضرورة التوافر عليه، فقال علي بن أبي طالب عليه السلام مثلاً: «اجعل من نفسك على نفسك رقيبًا، واجعل لآخرتك من دنياك نصيبًا»[1].

وما هذا الاهتمام من جانب الإسلام بإثارة قضية «الرقابة» في حياة الإنسان إلاَّ لما لها من أثر إيجابي فاعل؛ فكم هو كبيرٌ الفرق بين إنسان يعيش حالة الغفلة المطلقة عن كونه مراقبًا في أعماله وتصرفاته وأخر لا يكاد يغيب عن باله أنه مراقب وأنه يومًا ما سيُحاسب فيُثاب أو يُعاقب! إنَّ سلوك الاثنين جِدّ مختلف، فالأول لا يعنيه

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص١١٩.

في شيء أن يُقصِّر في أداء حق ربه أو يطغى على أبناء نوعه، بينما الثاني يتألم لأية هفوة أو تقصير ويكاد لا يرضى عن نفسه أبدًا، تمامًا كما كان الرجل الآتية قصته:

«عن ليث بن أبي سليم قال: سمعت رجلاً من الأنصار يقول: بينما رسول الله ﷺ مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر إذ جاء رجل ينزع ثيابه ثم جعل يتمرغ في الرمضاء يكوي ظهره مرة وبطنه مرة وجبهته مرة ويقول: يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعتُ بك، ورسول الله ينظر إلى ما يصنع، ثم إنَّ الرجل لبس ثيابه ثم أقبل فأومأ إليه النبي ﷺ بيده ودعاه فقال له: يا عبد الله لقد رأيتك صنعت شيئًا ما رأيتُ أحدًا من الناس صنعه، فما حملك على ما صنعت؟

فقال الرجل: حملني على ذلك مخافة الله وقلت لنفسي: يا نفسي ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك، فقال النبي ﷺ: لقد خفت ربك حق مخافته وإنَّ ربك ليباهي بك أهل السماء، ثم قال لأصحابه: يا معشر من حضر ادنوا

من صاحبكم حتى يدعو لكم، فدنوا منه فدعا لهم وقال: «اللهم اجمع أمرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنة مآبنا»[1].

وإذا ما حاولنا ربط الحديث عن الرقابة في دعاء الإمام السجاد عليه السلام بما سبقه من حديث حول الفراغ وما يتعلق به، فلن يكون من التكلف وقسر النص أن يقال: «إنَّ الحديث عن الرقابة أُتي به هنا خطوةً على طريق «السلامة» في الفراغ؛ إذ أنَّ الإنسان الذي يعيش في وجدانه شعورٌ بأنه مراقب وأنَّ حركاته سكناته تُحصى بأجمعها لن يجد في نفسه ما يدعوه إلى شغل فراغه بالمعاصي أو إلى تضييع وقت فراغه في العدم.

وبذا يعلِّمنا الإمام عليه السلام أننا إذا استحضرنا فكرة كوننا مراقبين دومًا فسوف يساعدنا هذا الاستحضار كثيرًا على الاقتراب من السلامة المنشودة.

وبالطريقة نفسها يمكن تفسير ذكر الأمور التي ستأتي.

---

(١) المحجة البيضاء، للكاشاني، ج٧، ص٣٠٩.

الفصل الرابع:

شيءٌ عن الموت

«وإذا انقضت أيام حياتنا، وتصرَّمت مُدَدُ أعمارنا، واستحضرتنا دعوتُك التي لابد منها ومن إجابتها...».



بهذه الكلمات القلائل يضع الإمام السجاد عليه السلام بين أيدينا نظرته (التي هي نظرة الإسلام) إلى ثنائية الحياة/ الموت، حيث إنَّ:

أ ـ الحياة مهما طالت بالإنسان فما هي إلاَّ رحلة مؤقتة لابد لها من نهاية تنتهي عندها لتبدأ بعد ذلك الرحلة الكبرى.

والكلمات التي استعملها الإمام هنا بعناية تشي بهذه الحقيقة بشكل واضح، فهناك «إذا» الشرطية التي تدل

على حتمية تحقق الشرط، أي حتمية الانقضاء والتصرّم، وهناك اختيار الفعلين (انقضت وتصرَّمت) الدالَّين على النهاية المحتومة، ولا ننسى أيضًا التعبير عن الحياة والأعمار بأنها (أيام ومُدد)، فهي مهما طالت فإنها لا تخرج عن كونها مجرد «أيام» لها وقت معلوم تنتهي عنده (فيما توحي به كلمة «مدد» التي هي جمع «مُدَّة» التي تحمل معنى «الغاية»)[1].

فالإمام إذن لا يتحرك في الحياة بنفسية مَنْ تلتقمه الحياة فلا يرى - وهو في جوفها - غيرها، ويخالها سرمدية باقية، إن لم يكن ذلك بعقله وفكره، فبسلوكه وعمله.

إنه عليه السلام يُبصر نهايتها، ويراها آتية لا محالة. ومَنْ كانت هذه حالته هل سيجد في نفسه ما يدعوه إلى ملء فراغه بالمعاصي أو بلا شيء؟

---

(١) انظر لسان العرب، مادة «مدد».

ب- الموت هو عبارة عن تلك النقطة التي تنتهي عندها تجربة الإنسان في الدنيا لتبدأ بعدها تجربته الكبرى، وهذه النقطة أمرها محتوم حتميةَ الحياة نفسها.

لكن، كيف هو الموت في نظر الإمام السجاد عليه السلام ؟

هل يفهم الإمام الموت على أنه إعدام للحياة بشكل كلي، فيكون أمرًا بغيضًا لا يعني للبشرية سوى المنقصة، منقصة العدم؟

«ومن قديم الزمان حاولت البشرية قبل عصر الأديان أن تقاوم فكرة العدم، وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود لا تكفي لحماية الإنسان من رفض حياة تنتهي حتماً بهذا المصير الرهيب»[1].

وحقٌّ أنَّ جهل حقيقة الموت يؤدي بالإنسان إلى

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحمن عميرة، ص٢٠١.

جهل حقيقة الحياة وقيمتها، فلا يدرك أيَّ معنى لحياة ملؤها الآلام والكدورات وختامها الموت الذي يعني نهاية كل شيء، ويقول حينئذ كما قال سارتر على لسان بطله «روكنتان»: «أنا أفكر بأننا نقضي وقتنا هنا نأكل ونشرب لنحافظ على وجودنا الثمين، وأنه ليس ثمة أي تبرير للوجود على الإطلاق»[1].

كلا، لا يفكر الإمام السجاد عليه السلام في الموت بهذه الطريقة الساذجة. إنَّ الموت وإن كان يمثِّل انقضاء أيام الإنسان إلاَّ أنَّ هذه الأيام ليست سوى أيام الحياة الدنيا، لتبدأ بعدها الرحلة الجديدة، رحلة إجابة الدعوة الإلهية.

ولنتأمل هنا كلمة «دعوة» التي عنى بها الإمام الموت، فما أعمقها من كلمة! وما أوسع أبعادها !

---

(١) الغثيان، سارتر، ترجمة د. سهيل إدريس، ص١٥٧.

ولنلاحظ أيضًا أنَّ كلمة «دعوة» قد أضيفت إلى الضمير العائد إلى الله تعالى، إلى أكرم الأكرمين، فهل يكون الموت بعد هذا إنقاصًا من قدر الإنسان؟

إنه ابتداء لرحلة، وهذه الرحلة هي رحلة تلبية دعوة قد قُدِّمت للإنسان من أعظم جهة يمكن للإنسان أن يُدعى إليها، وعندما يصل هذا الإنسان إلى المقصد فلا شك في أنَّ داعيه الكريم سوف يشمله بكرمه وفضله ويحوطه برعايته وبره، ومن هنا قال الرسول ﷺ عن الموت: «الموت ريحانة المؤمن»(١).

وقال: «تحفة المؤمن الموت»(٢).

وقد قال الشيخ أبو الحسين ورام تعليقًا على الحديث الشريف الأخير: «وإنما قال هذا لأنَّ الدنيا

---

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٣٩.
(٢) م. ن، ج٩، ص٢٣٩.

سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من رياضة نفسه ومقاساة شهواته ومدافعة الشيطان، فالموت إطلاق له من العذاب، والإطلاق تحفة في حقه، لما يصل إليه من النعيم الدائم»[1].

لكن هذا كله إنما يكون في صورة ما إذا كان الإنسان قد أعدَّ العدة اللازمة لرحلته هذه في أثناء حياته، وما العدة التي تلزم لمثل هذا السفر إلاَّ الطاعات والصالحات. إذن فليستعد الإنسان لرحلته جيدًا، وليعرف حقيقة الموت بالنسبة إليه، وبعد ذلك لن يبقى ثمة أي سبب على الإطلاق للوجل من الموت ولكراهته، ولنلاحظ هنا الرواية الآتية: «قيل لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت؟

قال: لأنهم جهلوه فكرهوه، ولو عرفوه وكانوا من

---

(١) مجموعة ورَّام، ج١، ص٢٦٨.

أولياء الله عزوجل لأحبوه، ولعلموا أنَّ الآخرة خير لهم من الدنيا.

ثم قال عليه السلام: يا أبا عبد الله ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه ؟

قال: لجهلهم بنفع الدواء.

قال: والذي بعث محمدًا بالحق نبيًا إنَّ من استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع له من هذا الدواء لهذا المتعالج. أما إنهم لو عرفوا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشد ما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات»[1].

هذا فيما يرتبط بالموت نفسه، لكن دعونا نتحدث قليلاً عن دور «ذكر الموت»، فلماذا يذكر الإمام السجاد عليه السلام الموت هنا ؟

---

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٣٦.

ولماذا حثَّت الأحاديث والروايات الشريفة على ذكر الموت كل هذا الحث؟ حتى ورد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ فأجاب: «نعم، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»[1].

إنَّ لذكر الموت أثرًا كبيرًا في توجيه فكر الإنسان وأحاسيسه وفي ضبط سلوكه، ويتجلى هذا الأثر من خلال النقاط الآتية:

١ - الموت حقيقة من أجلى الحقائق وأوضحها، أعني من جهة حتمية الوقوع، ومع ذلك يحاول الإنسان تناسي هذه الحقيقة ليتصرف في حياته كما يحلو له من دون ضابط أو رادع، وكأنَّ الموت أمر مشكوك الوقوع، وفي هذا يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لم يخلق الله عزوجل يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت»[2].

ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «عجبتُ لمن

---

(١) مجموعة ورَّام، ج١، ص٢٦٨.
(٢) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٣٠.

نسي الموت وهو يرى الموتى»[1].

وهنا يبرز أثر ذكر الموت، إذ يكون هذا الذكر مواجهة جريئة لحقيقة الموت الثابتة، فتتجذر حتمية الفراق للدنيا في فكر الذاكر، وينعكس هذا على أحاسيسه وسلوكه، فلا تبقى الدنيا أكبر همه. صحيح أنه لا ينعزل عن الحياة، ولكنه يعيشها بنحو مختلف عن النحو الذي يعيشها الغافل عن الموت، فالذاكر للموت تتفجر ينابيع القناعة بالمعيشة الضيقة في صدره لأنه لا يراها إلا فانية، ويتخذ من ماله وسيلة تقربه إلى ربه لتنفعه بعد موته، وهكذا حاله في كل أموره. يقول الرسول ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات[2]، فإنكم إن كنتم في ضيق وسَّعه عليكم

---

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٣٠.

(٢) «هادم اللذات» وصف أطلقته الأحاديث الشريفة على الموت. فقد قال الرسول ﷺ في رواية أخرى: «أكثروا من ذكر هادم اللذات، فقيل: يا رسول الله فما هادم اللذات؟ قال: الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدهم له استعدادًا». [ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٤٦]، ولا يخفى ما في وصف الموت بأنه «هادم اللذات» من دلالات.

فرضيتم به فأثبتم، وإن كنتم في غنى بغَّضه إليكم فجدتم به فأجرتم. ألا إنَّ المنايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الآجال، وإنَّ المرء عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما قدَّم وقلة غنى ما خلَّف، ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه»[1].

٢- ذكر الموت يعني ذكر الأجل الذي ستنتهي عنده حياة الإنسان في هذه الدنيا، فذكره ذكر لكون المدة المخصصة للعمل محدودة، وأثر هذا هو أن يستغل الإنسان كل الأوقات المتاحة لديه فيما ينفعه من دون أن يترك لحظات فراغه تضيع سدى، قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات»[2].

ونقل الشيخ الديلمي هذه القصة:

«روي أن شابًا ورث من أبيه مالاً جزيلاً فجعل

(١) إرشاد القلوب، للديلمي، ج١، ص٤٨.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣١.

يخرجه في سبيل الله، فشكت أمه ذلك إلى صديق كان لأبيه وقالت: إني أخاف عليه الفقر، فأمره ذلك الصديق أن يستبقي لنفسه من الأموال، فقال له الشاب: ما تقول في رجل ساكن في ربط البلد وقد عزم على أن يتحول إلى داخل المدينة فجعل يبعث غلمانه برحله ومتاعه إلى داره بالمدينة، فذلك خير أم كان يرحل بنفسه ويترك متاعه خلفه لا يدري يُبعث به إليه؟ فعرف الصديق أنه صادق في مثاله ذلك، فأمره بإنفاقه في الصدقات»[١].

والحق أنّ الذي يضيّع فرص الخير مهدرًا أوقاته فيما لا طائل وراءه غافل عن ذكر الموت وعن قربه، قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «تارك التأهب للموت واغتنام المهل غافل عن هجوم الأجل»[٢].

وإلاَّ فكيف يتكل العاقل على احتمال توافر فرص

---

(١) إرشاد القلوب، ج١، ص٤٩ - ٥٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٤٣.

لاحقة فيما إذا كان يرى الموت نصب عينيه، ويلهج بذكره دائماً ؟

٣- لذكر الموت أثر عظيم في إبعاد الإنسان عن طريق المعصية؛ ذلك أنه حينما يتذكر الموت تفقد لذائذ الدنيا، المباحة فضلاً عن المحرمة، قيمتها في نظره، لكونها وقتية زائلة، أفيكون من العقل أن يترك الإنسان لذائذ الجنة الخالدة تفلت من يديه لأجل مجموعة من الرغبات الدنيوية تدعوه إليها شهواته؟

ولذا قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أكثروا ذكر الموت عند ما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، وكفى بالموت واعظًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرًا ما يوصي أصحابه بذكر الموت فقال: أكثروا ذكر الموت فإنه هادم اللذات حائل بينكم وبين الشهوات»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ذكر الموت يميت

---

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٤٦ - ٢٤٧.

الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلـب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى...»[1].

(١) م. ن، ص٢٤٥.

الفصل الأخير:

ختام الأعمال والتوبة والقيامة

«فصلِّ على محمد وآله، واجعل ختام ما تحصي علينا كَتَبَةُ أعمالنا توبةً مقبولة، لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه ولا معصية اقترفناها، ولا تكشف عنا سترًا سترته على رؤوس الأشهاد، يوم تبلو أخبار عبادك. إنك رحيم بمن دعاك، ومستجيب لمن ناداك».



بعد الصلاة على النبي وآله يبيّن الإمام عليه السلام ههنا بعض القضايا المهمة: أولى هذه القضايا هي مسألة «ختام الأعمال»، فهو عليه السلام يسأل ربه أن يجعل «ختام» أعماله في هذه الدنيا توبة مقبولة. ومسألة ختام الأعمال

من المسائل المهمة التي أشارت إليها الروايات، ونبَّهت على أهميتها في تقرير مصير الإنسان.

كقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات على شيء بعثه الله عليه»[1]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[2].

وهي من المسائل التي تؤرق مضاجع المتقين وتملأ قلوبهم خوفًا. قال العلامة الزاقي قدس سره: «وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة، وهو الذي قطع قلوب العارفين...»[3].

وذلك لأنه من الممكن جدًا أن يقضي الإنسان عمره في طاعة الله وتحري سبيل مرضاته، ثم يوسوس إليه الشيطان في آخر عمره ويجعله يكفر بالله أو يشرك به فيموت خاسرًا خسرانًا مبينًا.

وهكذا يريدنا الإسلام أن نفكر فيما ستكون عليه

---

(١) و (٢) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٢٦.
(٣) جامع السعادات، ج١، ص٢٢٢.

نهايات أعمالنا قبل أن نودِّع هذه الحياة، ولهذا دور عظيم في جعلنا لا نغترّ باستقامتنا الفعلية في بعض مراحل حياتنا أو كل مراحلها ما دمنا بعدُ لم نواجه المرحلة الأخيرة، إذ كيف يفرح الإنسان بنجاته ويسعد بطاعاته وهو يجهل مستقبله؟

إنَّ الدنيا دار امتحان إلهي، ومن الحمق أن يقطع الإنسان ويتيقن بنجاحه في الامتحان قبل أن يكمل طي مراحله كافة!

لكن، هل معنى هذا كله أنَّ الإسلام يجعل الأعمال الختامية للعباد هي، وحدها، المحدِّدة لمصائرهم، بحيث لا تنفع الصالحات السابقات مطلقًا فيما إذا كانت الإساءات والمعاصي هي المتأخرة ؟

إنَّ هذه المسألة تُعرف، في علم الكلام، بمسألة «الإحباط»، وهي من المسائل التي كثر حولها الجدل بين المدارس الإسلامية في هذا العلم.

والقائلون بالإحباط - وهم معظم شيوخ المعتزلة - لهم فيه ثلاثة أقوال:

١- الإساءة الكثيرة المتأخرة تؤدي إلى إحباط ثواب الحسنة القليلة المتقدمة من غير أن يؤدي سقوط الحسنة إلى التقليل من الإساءة، وهذا القول قد حكي عن أبي علي الجبائي.

٢- الإساءة الكثيرة المتأخرة تؤدي إلى إحباط ثواب الحسنة القليلة المتقدمة مع تأثير الحسنة في تقليل الإساءة، وهو القول المنسوب إلى أبي هاشم الجبائي.

٣- الإساءة المتأخرة تُحبط جميع الطاعات المتقدمة، وإن كانت الإساءة قليلة والطاعات كثيرة، وهذا القول حكاه التفتازاني في «شرح المقاصد».

والمشهور بين الإمامية هو القول بنفي الإحباط؛ وذلك لأنَّ الإحباط، بمعناه المتقدم في الأقوال الثلاثة،

يستلزم خلف الوعد، أي الوعد بالثواب على الطاعات، وخلف الوعد قبيح بنظر العقل وبحكم العقلاء فكيف يكون من الله تعالى؟ أي كيف يعد الله عباده بثوابه إن هم أتوا بالطاعات ثم يمنعهم هذا الثواب لمجرد أنهم قد ارتكبوا المعاصي بعد تلك الطاعات؟

ثم إنَّ الإحباط - بمعنييه الأول والثالث - يؤدي إلى الظلم، وتعالى الله عن الظلم علوًا كبيرًا. وما أبشعه من ظلم، هذا الذي يستلزمه الإحباط على القول الثالث!، إذ «لا يحسن من الحليم الكريم إبطال ثواب إيمان العبد ومواظبته على الطاعات طول العمر بتناول لقمة من الربا أو جرعة من الخمر»(١).

وقد يسأل هنا سائل: إذا كان علماء الإمامية ينكرون الإحباط فكيف، إذن، يفسرون الآيات القرآنية الكريمة التي صرحت به؟ كقوله تعالى:

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين، السيد عبد الله شبر، ج٢، ص٣٢٣.

- «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[1].

- «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين»[2].

- «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون»[3].

- «والذين كذَّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم»[4].

والجواب: إنهم يقولون بأنَّ استحقاق الثواب على الطاعات كان مشروطًا من البدء بأن لا تصدر هذه

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧.
(٢) سورة المائدة، الآية ٥.
(٣) سورة الحجرات، الآية ٢٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٤٧.

المعاصي، التي وُصفت بأنها مُحبطة للعمل، لاحقاً. فإذا صدرت المعصية فيما بعد فهذا يعني عدم تحقق شرط الاستحقاق، فلا استحقاق إذن، لا أنَّ الاستحقاق ثابت ومع ذلك لم يفِ الله بوعده.

وأما أنه كيف يُعبِّر عن عدم الاستحقاق من الأصل بالإحباط مع أنَّ «الإحباط» ظاهره الإبطال والإسقاط؟ فمرجع ذلك إلى كون مقتضي الاستحقاق موجودًا، وهو العمل الصالح نفسه، وإن لم يتحقق شرط الاستحقاق (وهو عدم لحوق المعاصي)، فهنا إبطال وإسقاط بملاحظة وجود جزء العلة (وهو المقتضي أي العمل الصالح). ويشبه هذا ما إذا كانت لشخص أرض صالحة للزراعة، فبنى عليها أبنية تجارية، فإنه يمكن لشخص ثان هنا أن يقول: «أفسد فلان زراعته وأبطلها»، مع أنه لا توجد ثمة زراعة من الأصل، لكن «الإفساد» هنا ناظر إلى صلاحية الأرض للزراعة، أي إلى وجود المقتضي.

ثم إنَّ الظاهر من النصوص أنَّ الأصل في الثواب المترتب على الصالحات أن يكون ثوابًا منجزًا غير معلَّق على شيء، فلذلك لا يقال بوجود الشرط المتأخر بعدم لحوق المعصية إلا في الموارد التي دلَّت فيها الأدلة الشرعية على كون معصية ما ذاهبة بثواب الحسنات أو بثواب بعضها، كما هي الحال في الموارد التي أشارت إليها الآيات القرآنية المتقدمة.

وهكذا يكون علماء الشيعة الإمامية قد تخلصوا من إشكال لزوم الظلم وإشكال لزوم خلف الوعد عند القول «بالإحباط»، من غير أن يتنكروا للآيات والروايات التي صرَّحت بالإحباط في بعض الموارد. وخلاصة مذهبهم في المسألة إنكار الإحباط بمعنى سقوط الثواب (بعد استحقاقه) بالمعصية اللاحقة، أي إنكار الإحباط بمعناه الذي طرحه القوم، والقول بالإحباط بمعنى خاص في الموارد الخاصة التي دلت عليها الأدلة الشرعية.

والمسألة بعد هذا مسألة عميقة الغور حَرِيَّة بالسَّبر، فلتراجع تفصيلاتها في الكتب المعدة لأمثالها[1].



والقضية الثانية التي عرضها الإمام السجاد عليه السلام في هذا المقطع الأخير من الدعاء هي قضية «التوبة»، فهو عليه السلام يسأل ربه أن يجعل ختام أعماله التي تحصيها الملائكة «توبة مقبولة». وسؤال الإمام هذا جدير، في حد نفسه، بالملاحظة.

فالإمام عليه السلام يعلِّمنا هنا كيف ينبغي أن تتطلع نفوسنا إلى التوبة لتكون ختامًا لأعمالنا في دنيانا هذه، ذلك أنَّ التوبة - متى ما كانت مقبولة - تغسل درن الذنوب كما

---

(١) يُراجع مثلاً كتاب «الإلهيات» للشيخ جعفر السبحاني، مباحث المعاد في المجلد الثاني، ص٨٦١، وكتاب «حق اليقين في معرفة أصول الدين»، للسيد عبد الله شبر، ج٢، ص٣٢٢، وكتاب «كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد» للعلامة الحلي، المسألة السابعة من المقصد السادس ص٤١٣.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من تاب تاب الله عليه، وأُمرت جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتم عليه، وأُنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه»[2].

وما أحسن حال هذا العبد الذي تأتيه المنية بعد توبته! (هذا شريطة أن يكون قد تاب قبل معاينة الموت وإلاّ لم تقبل توبته كما أشارت الأدلة الشرعية). أجل، ما أحسن أن يموت المرء وليس عليه أي ذنب يرديه!

«قيل لعلي بن الحسين عليهما السلام: ما خير ما يموت عليه العبد ؟

قال: أن يكون قد فرغ من أبنيته وقصوره ودوره.

---

(١) ميزان الحكمة، ج١، ص٥٤٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٦، ص٢٨.

قيل: وكيف ذلك ؟

قال: أن يكون من ذنوبه تائبًا، وعلى الخيـرات مقيماً، يرد على الله حبيبًا كريماً»[1].

ولنلاحظ هنا أنَّ الإمام السجاد عليه السلام في دعائه لم يسأل ربه «قبول» توبته مباشرةً، بل سأله أن يجعل ختام أعماله توبة مقبولة، أي أنه سأله التوفيق للتوبة المقبولة. فليست مسألة التوبة إذن مسألة هينة، في متناول يد الإنسان متى شاء. إنها بحاجة إلى توفيق إلهي لكي تتحقق.

وتبرز الحاجة إلى التوفيق الإلهي بشكل بارز من جهتين:

الجهة الأولى: كون الإنسان لا يعلم بوقت حلول أجله، فلربما يحلّ عليه الموت قبل أن يلجأ إلى ربه بالتوبة التي طالما كان يحدِّث بها نفسه ويؤجلها يومًا بعد آخر؛

---

(١) ميزان الحكمة، ج٩، ص٢٥٤.

ولذا جاء في وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

«واعلم يا بنيَّ أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنك في قُلْعة ودار بُلغة، وطريق إلى الآخرة، وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفوته طالبه، ولابد أنه مدركه، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة، قد كنت تُحدِّث نفسك منها بالتوبة، فيحول بينك وبين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك»[1].

ومن هنا فإنَّ من الطيش أن يؤجل الإنسان توبته ولا يبادر إليها على أمل أن يتوب في آخر عمره، كما لربما يفعل بعضنا. قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «مسوِّف نفسه بالتوبة من هجوم الأجل على أعظم الخطر»[2].

(١) نهج البلاغة، الكتاب، ٣١.
(٢) ميزان الحكمة، ج١، ص٥٤.

بل إنَّ من لا يدري متى يتخطفه الموت لمطالَب عقلاً بتجنب المعاصي من البدء؛ لئلا يموت قبل أن يوفَّق للتوبة، قال الإمام علي عليه السلام أيضًا: «ترك الذنب أهون من طلب التوبة»[1].

الجهة الأخرى: نحن هنا نتحدث عن التوبة الموصوفة بأنها «مقبولة»، وواضح أن القبول لا يتحقق بمجرد تحريك اللسان بالألفاظ الدالة على التوبة والاستغفار، بل لابد من توافر مجموعة من الخصال والشروط، ومن هنا تظهر الحاجة إلى التوفيق الإلهي للمرء كي يتسنى له تحقيق التوبة الحقيقية التي ترحض ذنوبه وتمحوها.

ولقد دلَّت مجموعة من الروايات الشريفة على كيفية التوبة والاستغفار بحق، كالرواية الآتية: «عن كميل بن زياد قال: قلتُ لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين العبد

---

(١) ميزان الحكمة، ج١، ص٥٤.

يصيب الذنب فيستغفر الله منه، فما حد الاستغفار؟ قال: يا ابن زياد، التوبة.

قلتُ: بس؟

قال: لا.

قلت: فكيف؟

قال: إن العبد إذا أصاب ذنبًا يقول: أستغفر الله، بالتحريك.

قلت: وبالتحريك؟

قال: الشفتان واللسان، يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة.

قلت: وما الحقيقة ؟

قال: تصديق في القلب وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه.

قال كميل: فإذا فعل ذلك فإنه من المستغفرين؟

قال: لا.

قال كميل: فكيف ذاك ؟

قال: لأنك لم تبلغ إلى الأصل بعد.

قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟

قال: الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه، وهي أول درجة العابدين، وترك الذنب. والاستغفار اسم واقع لمعانٍ ست:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العَوْد أبدًا.

والثالث: أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم.

والرابع: أن تؤدي حق الله في كل فرض.

والخامس: أن تذيب اللحم الذي نبت على السحت

والحرام حتى يرجع إلى عظمه، ثم تنشئ فيما بينهما لحمًا جديدًا.

والسادس: أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذقته لذَّات المعاصي»[1].

أفهل بعد هذا الكلام من علي عليه السلام يمكن لعاقل أن يستصغر شأن التوبة ويعدّها أمرًا سهل المنال، لا يحتاج لأجله الإنسان إلى توفيق من ربه؟

❖❖❖

والقضية الأخيرة المثارة ههنا هي: قضية «يوم القيامة»، وذلك في قول الإمام السجاد عليه السلام: «لا توقفنا بعدها على ذنب اجترحناه ولا معصية اقترفناها، ولا تكشف عنَّا سترًا سترته على رؤوس الأشهاد، يوم تبلو أخبار عبادك...».

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ص٢٧ - ٢٨.

ولستُ أجد من الضروري هنا بيان الأثر الكبير الذي يخلِّفه ذكر يوم القيامة في حياة الإنسان وتوجيهها الوجهة المطلوبة، فهذا كله من الأمور الواضحة. لكن من المهم هنا أن نلاحظ أنَّ الإمام السجاد عليه السلام قد ذكر جانبين من جوانب يوم القيامة ومظهرين من مظاهر ذلك اليوم العظيم، وهما:

١ - المساءلة الإلهية، فهو عليه السلام يريد أن تكون التوبة ماحية لآثار الذنوب والمعاصي، حتى لا يُسأل الإنسان عنها يوم القيامة فلا يجد لنفسه عذرًا.

إذ هل يمكن أن يصل الغرور بأحد إلى درجة يتصور معها أنه قادر على الصمود عند المساءلة الإلهية في ذلك اليوم العصيب؟ اليوم الذي وصفه الإمام علي بن أبي طالب بقوله: «وذلك يومٌ يجمع الله فيه الأولين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال، خضوعًا قيامًا قد

أَلجمهم العرق، ورجفت بهم الأرض، فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعًا، ولنفسه متسعًا»[1].

ولنستمع هنا إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) وهو يعطينا صورة صادقة تهتز لها القلوب للمساءلة في يوم القيامة، حين قال: «ليقفنَّ أحدكم بين يدي الله فيقول له: ألم أؤتك مالاً ؟

فيقول: بلى (فيقول): ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقول: بلى.

ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقِ أحدكم النار ولو بشق تمرة فإذا لم تجد فبكلمة طيبة.

ثم يقول: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم ماذا أجبت الرسل؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيبًا عليك على عينيك وأنت تنظر بهما ما لا

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٢.

يحـل لك؟ ألم أكن رقيبًا على أذنيك؟ وهكذا يعدّ سائر الأعضاء»[1].

ويومَها تكون الحجة البالغة لله تعالى لا للعبد، قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من عبد إلاَّ ولله عليه حجة، إما في ذنب اقترفه، وإما في نعمة قصَّر عن شكرها»[2].

٢- كشف الستر، من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده في الدنيا أنهم مهما فعلوا ومهما ارتكبوا من آثام وذنوب فإنه تعالى لا يفضحهم ولا يهتك عنهم ستره، إمهالاً لهم علَّهم يرعوون ويرجعون إلى خط الحق، لكنهم إن لم يفعلوا ذلك في دنياهم فإنَّ مظهر الرحمة هذا يتحول إلى مظهر من مظاهر العذاب، وهو أن يُكشف عنهم الستر، ويُفتضحوا على رؤوس الأشهاد في يوم القيامة

---

(١) مجموعة ورَّام، ج١، ص٢٩٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٧، ص٢٦٢.

الذي تُبلى فيه الأخبار (والبلاء هو - في الأصل - بمعنى الاختبار، وحقيقته في حقه تعالى الكشف والإظهار).

سأل زنديق الإمام الصادق عليه السلام عن الناس: يعرضون صفوفًا يوم القيامة؟ فقال: «نعم، هم يومئذ عشرون ومائة ألف صف في عرض الأرض»[1].

ولعمري إنَّ من أشد الأمور - إنْ لم يكن أشدها على الإطلاق - على قلب الإنسان المؤمن أن يُفتضح أمام نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وذريته الطاهرة عليهم السلام، أمام أولئك العظماء الذين ما ادخروا لذواتهم جهدًا لم يبذلوه لخدمة الإسلام وإعلاء الرسالة وهداية البشرية. فكم يكون مبلغ الخجل والانكسار لدى العبد حينما تظهر سيئاته أمامهم وتذكر مخازيه عندهم ؟

بم يعتذر عن إهماله لجهودهم وتنكره لمبادئهم ؟

---

(١) الاحتجاج، للطبرسي، ج٢، ص٣٥٠.

وثمة حقيقة أخرى ينبغي ألاّ تعزب عن بال المؤمن الحريص على ألاّ يطِّلع رسول الله منه على سوء، وهي: إنَّ الروايات الشريفة قد نصَّت على أنَّ أعمال العباد تُعرض على الرسول (صلوات الله عليه وعلى آله) وعلى أئمة الهدى عليهم السلام في الحياة الدنيا بصفة مستمرة، فتُفرحهم الأعمال الحسنة وتؤذيهم الأعمال السيئة.

فقد قال الصادق عليه السلام يومًا لمن معه: «ما لكم تسوؤن رسولَ الله صلى الله عليه وآله»؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: «أما تعلمون أنَّ أعمالكم تُعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك؟ فلا تسوؤا رسول الله وسُرّوه»[1].

وقال عبد الله بن أبان الزيات للإمام الرضا عليه السلام: ادعُ الله لي ولأهل بيتي، فقال عليه السلام: «أولست أفعل؟ والله إنَّ أعمالكم لتُعرض عليَّ في كل يوم وليلة... الرواية»[2].

(١) و (٢) أصول الكافي، ج١، ص١٧١.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «تُعرض الأعمالُ على رسول الله صلى الله عليه وآله، أعمالُ العباد، كلَّ صباح أبرارها وفجارها، فاحذروها، وهو قول الله تعالى: «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله»[1].

فهل يكتفي العبد المؤمن بعد هذا بأن يقلق لأنَّ أعماله ستُعرض على رؤوس الأشهاد يوم القيامة دون أن يقلق لما يسببه من أذى للرسول والأئمة في الدنيا نتيجة لسوء أعماله؟

أجل، إنَّ الرسول لمطَّلع وإنَّ الأئمة لمطَّلعون... أفنرعوي أم نزداد غيًا؟

ألا ندعو الله، صادقين، ليرحمنا من أهوال اليوم المهول، يوم القيامة؟ ألا نرحم أنفسنا باستنزال رحمة الله علينا: «إنك رحيم بمن دعاك» ؟

---

(١) أصول الكافي، ج١، ص١٧١.

إننا إن فعلنا ذلك، بصدق وإخلاص، فلن تتأخر عنا رحمة الله الذي وصف نفسه بأنَّه «كتب على نفسه الرحمة»[1].

روي أنه «قُدم على النبي ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال النبي ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ فقالوا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2].

وقال الرسول ﷺ: «تعرَّضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته»[3].

ومن مظاهر رحمته تعالى بالعباد استجابته لدعائهم: «ومستجيب لمن ناداك».

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢.
(٢) ميزان الحكمة، ج٤، ص٧٤.
(٣) م.ن، ص٧٧.

كيف لا ؟ وهو الذي قال: «ادعوني أستجب لكم، إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين»[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: «ما فتح لأحد باب دعاء إلا فتح الله له فيه باب إجابة، فإذا فتح لأحدكم باب دعاء فليجهد فإنَّ الله عزوجل لا يملّ حتى تملّوا»[2].

لكنه قال أيضًا: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»[3]، وقد رُويت هذه الكلمة نفسها عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أيضًا[4].

---

(١) سورة غافر، الآية ٦٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٦٤.
(٣) ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٥٥.
(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٧.

خاتمة

لعلِّي لا أكون ـ بعد كل ما تقدم - بحاجة إلى تأكيد ما سبق أن أشرت إليه، في إجمال، في «التوطئة» من كون الصحيفة السجادية مدرسة حقيقية تمتاز بدقة تناولها لقضايا الإنسان ومشكلاته، وشمولية هذا التناول، فعسى هذه الدراسة المتواضعة أن تكون قد ألقت شيئًا من الضوء على ذلك.

حسبي هنا أن أحاول تلخيص أهم القضايا التي تضمَّنها الدعاء، لكي يتضح من خلال هذا التلخيص، وبجلاء، الترابط الموجود بين تلكم القضايا، وكيف أنها تتناغم جميعًا لأجل رسم خط سير الإنسان في طريق الله:

١ - على الإنسان أن يعمِّق في نفسه الاعتقاد بأنَّ طريق طاعة الله تعالى هو الطريق الذي يضمن له مصلحته، لأنَّ الله تعالى لم يأمره إلا بما فيه خيره وصلاحه (الفصل الأول).

٢- لابد أن يتحرك الإنسان في حياته عمليًا طبقَ ما يعتقده، فيكون سلوكه الفعلي ترجمانًا لاعتقاده بأَنَّ طاعة الله هي الغاية المنشودة، ويتحرك بقلب ذاكر لله ولسان شاكر له وجوارح لا تعرف إلا طاعته. (الفصل الثاني).

٣- قد تكون لدى الإنسان في حياته حالات يعيش فيها «الفراغ»، فعليه حينها أن ينشد «السلامة»، وستتحقق له السلامة فيما إذا استحضر في ذهنه الأمور الآتية:

أ- كون الفراغ خطرًا عليه، إما من جهة احتمال الوقوع في مهاوي المعاصي، وإما من جهة تضييع الأوقات بلا فائدة (الفصل الثالث).

ب- كونه مراقبًا في أعماله بأنواع مختلفة من الرقابات، وكل حركاته وسكناته مكتوبة ومحصية (الفصل الثالث).

جـ- إنَّ للحياة أجلاً معينًا ينتهي بالموت، وعلى هذا ففرصة العمل محدودة (الفصل الرابع).

د- ختام الأعمال شيء مهم جدًا، فلا مجال للاغترار

بالاستقامة الفعلية، إذ لربما يقع الإنسان في أواخر أيامه في بعض المعاصي التي تُحبط كل أعماله الحسنة (بالمعنى المتقدم للإحباط). (الفصل الأخير).

هـ- التوبة من الذنوب وإن كانت ماحية لها، إلاَّ أنها - في حد ذاتها - غير معلومة التحقق لكونها تحتاج إلى توفيق إلهي، فلا يصح عقلاً أن يرتكب الإنسان المعاصي في حياته متّكلاً على أمل أن يتوب قبيل موته. (الفصل الأخير).

و- هناك عقبة عظيمة لا يتناساها إلا الجاهلون، وهي عقبة القيامة، وما فيها من مظاهر عظيمة، وأهمها المساءلة الإلهية وكشف الستر، فماذا أعدَّ المرء لنفسه من زاد؟ (الفصل الأخير).

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين برحمته في ذلك اليوم، فإنه أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا الكريم وآله الطاهرين وصحبه الميامين.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الاحتجاج: أبو منصور أحمد الطبرسي، بتحقيق السيد محمد باقر الخرسان، ط٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٣م.

٣- إرشاد القلوب: أبو محمد الحسن الديلمي، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، د.ت.

٤ـ الإسلام والعلاج النفسي الحديث: د. عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.

٥ـ أصول الكافي: أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

٦- الإلهيات: الشيخ جعفر السبحاني، ط٢، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم ١٤١١هـ.

٧- بحار الأنوار: الشيخ محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.

٨- التبيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو جعفر الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٩- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب): فخر الدين الرازي، ط١، دار الغد العربي، القاهرة، ١٩٩١م.

١٠- جامع السعادات: الشيخ محمد مهدي النراقي، بتحقيق السيد محمد كلانتر، ط٣، مطبعة النجف، النجف، ١٩٦٣م.

١١- حق اليقين في معرفة أصول الدين: السيد عبد الله شبَّر، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٣م.

١٢- الخصال: الشيخ الصدوق، بتحقيق علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم ١٤٠٣هـ.

١٣- الدعاء: ألكسيس كاريل، ترجمة د. محمد كامل

سليمان، دار المرتضى، بيروت، د.ت.

١٤- رياض السالكين: ابن معصوم المدني، الطبعة الحجرية القديمة، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، د.ت.

١٥- الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين عليه السلام، بتحقيق علي أنصاريان، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، دمشق، د.ت.

١٦- الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين عليه السلام، تقديم السيد محمد باقر الصدر، مكتبة الألفين، الكويت، د.ت.

١٧- الغثيان: جان بول سارتر، ترجمة د. سهيل إدريس، ط٣، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٦م.

١٨- غرر الحكم ودرر الكلم: القاضي أبو الفتح الآمدي، بتحقيق محمد سعيد الطريحي، ط١، دار القارئ، بيروت، ١٩٨٧م.

١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري، ط أدب الحوزة، قم، د.ت.

٢٠- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: العلامة الحلي، بتحقيق حسن حسن زاده الآملي، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم ١٤٠٧هـ.

٢١- لسان العرب: ابن منظور الأفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢٢- مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٢٣- مجموعة ورَّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر): أبو الحسين ورام الأشتري، مكتبة الفقيه، قم د.ت.

٢٤- المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء: المولى محسن الكاشاني، بتحقيق علي أكبر الغفاري، ط٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٥- المختصر: سعد الدين التفتازاني، المكتبة المحمودية التجارية بالأزهر، القاهرة، د.ت.

٢٦- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها: د. عبد الرحمن عميرة، ط١، دار اللواء، الرياض، ١٩٧٨م.

٢٧- مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار: السيد عبد الله شُبِّر، مكتبة بصيرتي، قم، د.ت.

٢٨- معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، بتحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٩- ميزان الحكمة: المحمدي الري شهري، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ١٤٠٣هـ.

٣٠- الميزان في تفسير القرآن: العلامة محمد حسين الطباطبائي، ط٥، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٣م.

٣١- نهج البلاغة: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، بتحقيق د. صبحي الصالح، ط٢، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢م.

الـفـهــرس


بسم الله الرحمن الرحيم